منارات
manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5277) السنة العشرون - الاربعاء (5) تشرين الأول 2022

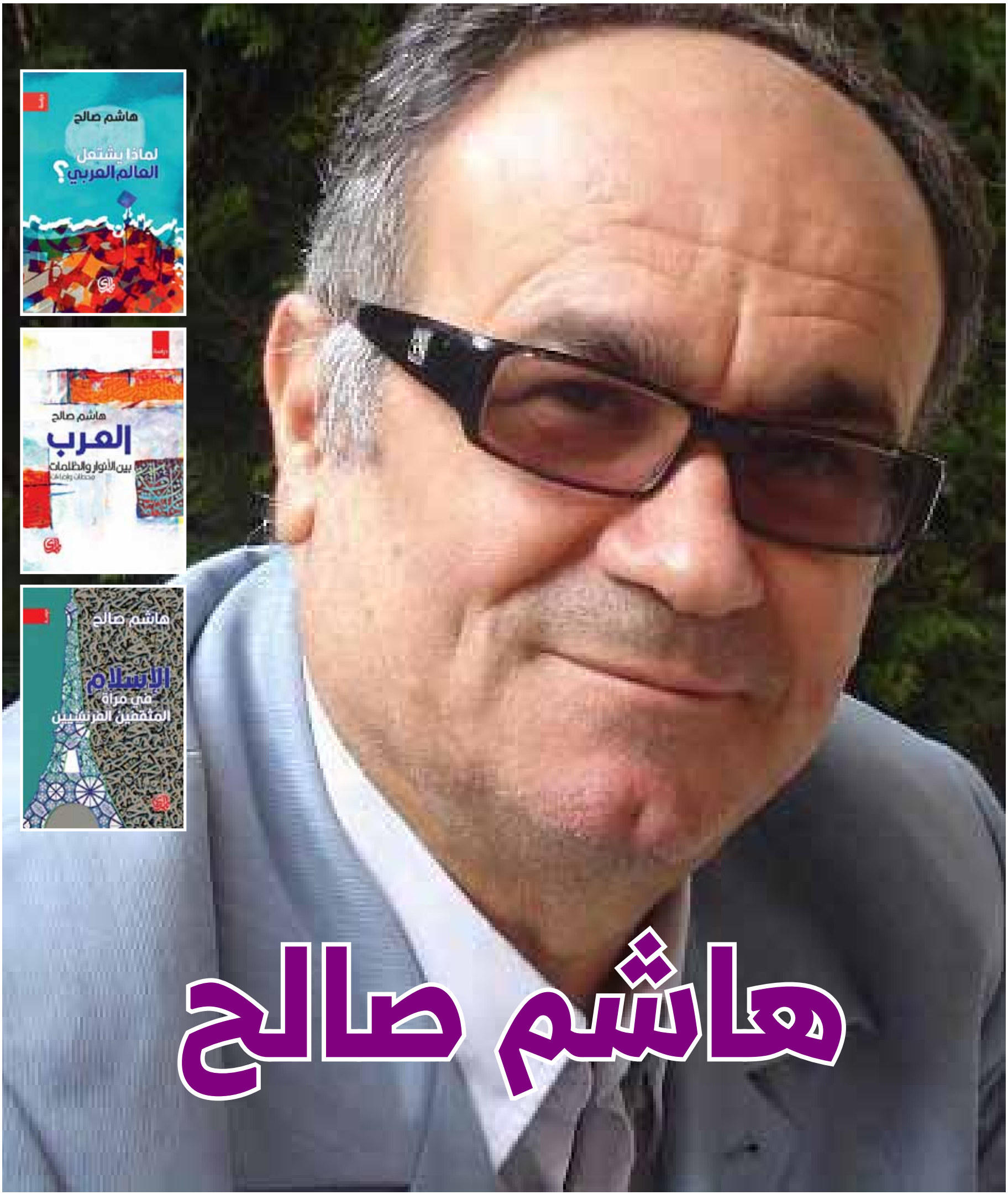

هاشم صالح في حوار مع المدى:

كل ما لم أستطع قوله حتى الآن قلته هنا في هذا الكتاب، لماذا يشتعل العالم العربي؟

أجرى الحوار: كه يلان محمد

الأزمات والإنتكاسات المتتالية في واقعنا المثخن بالتخلف سببها الأساس هو غياب المشاريع الرامية لفك الدوغمائيات المتراكمة على مدار القرون لذلك فنحن نعيشُ في حالة الإنسداد التاريخي ومايزيد من صعوبة التحوّل على الصعيد الفكري والعقلاني هو تعويل الأنظمة السياسية على توظيف الخطابات المتكلّسة لسد الثغرة في شرعيتها فبالتالي لاتوفر هذه البيئة المثقلة بالكراهية مناخاً مواتياً لإزدهار التيار العقلاني الذي يؤسسُ لرؤية إنسانية منفتحة بعيداً عن التموضعات المذهبية والطائفية والعنصرية،

لكن مع كل هذه الإحتقانات والخيبات المتتالية ثمة مساع حثيثة لتشخيص مكامن الخلل والحفر في الظواهر المسببة للتخلف الحضاري، ومايقومُ به الكاتب والباحث السوري هاشم صالح من خلال مؤلفاته القيمة ومشاركاته الفكرية المستمرة في المنتديات العالمية والعربية وقراءاته العميقة لأزمتنا المركبة يدعم مشروع التنوير العربي ويمدهُ بمفاهيم معرفية كاشفة لمظاهر الإنحطاط والجمود الفكري،وهو يضع حالة سباتنا العقلي أمام الفكر الأوروبي الذي يستمدُ حيويته من إنطلاقاته المتجددة وقدرته على تفكيك الإنغلاقات المعتمة والتراكمات المعطلة وبذلك لايدع مجالاً لتجاهل ماتفصلنا عنهم من المسافات والعقود المديدة على المستوى الفكري. صدر لـ«هاشم صالح» مؤخراً كتاب جديد بعنوان « لماذا يشتعل العالم العربي؟ » من إصدار دار المدى، وكان لنا حوارٌ حول محتويات كتابه هذا، ومايتصفُ به من الخصوصيات قياساً على مانشر له سابقاً من كتب عديدة.

ـ هل يمكن أن تعطينا فكرة موجزة عن تركيبة هذا الكتاب الجديد: لماذا يشتعل العالم العربي؟

– نعم. بداية أود أن أشكر الأستاذ فخري كريم أحد قادة الرأي العام والتنوير الفكري في العالم العربي على نشره لهذا الكتاب في دار المدى للطباعة والنشر. أقول ذلك وبخاصة إنه كان ضخماً من حيث الحجم ومتعباً. فهذا أضخم كتاب وربما أهم كتاب يتاح لي نشره حتى الآن. وقد أسعدني جداً أن ينشر لي لأول مرة كتاب ما في العراق. وأسعدني كثيراً غلاف الكتاب. فقد وجدته ناجحاً ومناسباً للمضمون تماماً. هذا من حيث الشكل والإخراج. أما من حيث المضمون فالكتاب مؤلف من مواد منشورة سابقاً ومواد جديدة تنشر هنا لأول مرة. أذكر من بينها: الإشكالية الكبرى التي تؤرق العالم حالياً: اللاهوت التكفيري أو التكفير اللاهوتي في الإسلام. كنت قد ألقيت نواته المصغرة شفهياً في مؤتمر كبير عقد في مقر اليونيسكو بباريس عام ٢٠١٩ ولكني وسعته كثيراً هنا، ولم ينشر بالعربية سابقاً في أي مكان، وهو يشكل الفصل الثاني في الكتاب. ولكن الفصل الثالث أيضاً جديد: هل من انبعاث عربي حقيقي من دون ثورة دينية؟ وكذلك الفصل الرابع: عناق الإسلام والمسيحية في أبو ظبي، والفصل الخامس: من أدونيس الى أركون أو العكس، والفصل السادس: حوار ساخن مع نيتشه وهيغل وكلمة الختام لأفلاطون، والفصل السابع: من نيس الى برشلونة: معركة التنوير العربي لما تكد تبتدئ. كل هذه الفصول الكبرى جديدة تنشر هنا لأول مرة. وهناك عناوين أخرى جديدة أيضاً من مثل: نقاش هادئ في مقهى باريسي، أو: لاهوت التكفير والتفجير يصل باريس، أو: نداء الى إخواني الأعزاء أهل السنة والجماعة، أو: متى التقيت بأدونيس لأول مرة ؟ الخ. ولكن حتى المواد المنشورة سابقاً تعرضت في معظم الأحيان للتنقيحات والتحسينات والإضافات. وهذا ينطبق بشكل خاص على الفصل الأول: "من عصر فولتير الى عصر العفيف الأخضر". فقد تم توسيعه وتعميقه كثيراً هنا. ولا ننسى المقابلة المطولة مع رضا غنيم فهي جديدة كلياً وتنشر هنا لأول مرة. بل وحتى المقابلة التي أجرتها الدكتورة ريتا فرج فقد تم توسيعها وتعميقها هنا. لماذا أقول كل هذا الكلام؟ لأن بعض الإخوة توهموا أن الكتاب كله عبارة عن تجميع عشوائي لمقالات سابقة متفرقة لا رابط بينها. هذا ليس صحيحاً ولا دقيقاً ولذا اقتضى التنويه.

ـ أنت تقول بأن المثقفين لم يستبقوا على الانفجار أو الاشتعال الحاصل في العالم العربي. فهل ينبغي أن نعيد النظر في وظيفة المثقف ودوره؟

– نعم السؤال الذي كنت أطرحه على نفسي ولا أزال هو: لماذا لم يستبق المثقفون العرب على الانفجارات التراثية الهائلة التي حصلت مؤخراً وأحرقت الأخضر واليابس؟ لماذا تغاضوا عن خطورة الجماعات التكفيرية التي عاثت فساداً في الأرض وهدّدت التعايش الأخوي والسلمي بين مختلف مكونات المجتمع الواحد؟ وجوابي هو التالي: لأنهم مؤدلجون أكثر من اللزوم. الأدلجة السياسية والشعارات الديماغوجية أعمتهم عن رؤية الواقع كما هو. ومعلوم أن الايدولوجيا استلابية بطبيعتها: بمعنى أنها تستلب عقلك وتستولي عليه ولا تجعلك قادراً على رؤية الواقع كما هو بكل تركيباته وتعقيداته. هذه هي أدلجة القطيع أو الجماهير كما شرحها غوستاف لوبون في كتابه الشهير: سيكولوجية الجماهير. ومعلوم أيضا أن هناك فرقاً أساسيا بين الفكر الايديولوجي أو المؤدلج/ والفكر العلمي الواقعي المسؤول. وأنا هنا أتهم الأيديولوجيا القومية العربية المتطرّفة كما أتهم الأيديولوجيا الشيوعية الغبية أيضاً. كل هذه الأدلجات العمياء كنسها الواقع وجرفها مؤخراً لحسن الحظ. هذا لا يعني أن القومية العربية ليست مشروعة ولكن بشرط أن تكون ذات مضمون إنساني منفتح لا عنصري ضيق كاره للآخرين كالكرد في المشرق أو الأمازيغ في المغرب.

ما هي خصوصية هذا الكتاب بالقياس الى ما سبقه؟

– كل ما لم أستطع قوله حتى الآن قلته هنا في هذا الكتاب. كل ما لم أتجرأ عليه في كتبي السابقة تجرأت عليه هنا. لم أحاول تحاشي المشكلة الأساسية التي تفجر العالم العربي حاليا، وانما واجهتها وجها لوجه وسميت الأشياء بأسمائها. وأقصد بها المشكلة الطائفية والمذهبية. على مدار الكتاب لم يكن لي من شغل شاغل غيرها. هل نجحت في معالجتها أم فشلت؟ هذه مسألة أخرى يجيب عليها الزمن والقراء العرب. ذلك أنه بعد كل ما حصل من دمار ومجازر باسم الدين أو بالأحرى باسم التفسير الظلامي المرعب للدين ما عاد السكوت ممكناً. بعد بن لادن والزرقاوي والبغدادي والقاعدة وداعش وعشرات غيرهم آن الأوان للدخول في صلب الموضوع! ما عاد ممكناً السكوت على هذه المشكلة المتفاقمة التي تنخر في

أحشاء أحشائنا. وأقصد بها مشكلة الفتنة الكبرى التي حصلت قبل ١٤٠٠ سنة أو أكثر قليلاً. ولذلك تجرأت لأول مرة على التحدث عنها بكل صراحة ووضوح، ودون أي لف أو دوران. وهي فتنة لم نستطع تجاوز آثارها أو عقابيلها حتى اللحظة. إنها شرخٌ في تاريخ طويل. الفكر العربي الحالي عاجز عن تشخيصها بشكل صحيح ناهيك عن حلها. وذلك لأنه إما أنه فكر تقليدي قروسطوي عتيق، وإما لأنه فكر سطحي مسيس ومؤدلج أكثر من اللزوم. من الواضح أنه يلزمنا فكر آخر لم ير النور بعد. هذا الفكر الآخر هو ما أحاول رسم خطوطه العريضة هنا من خلال طرحي لمشكلة اللاهوت التكفيري أو التكفير اللاهوتي في الإسلام. ثم من خلال تركيزي على قضية التنوير العربي باعتباره علاجاً شافياً لها. وكانت مشكلة التكفير ومضادها التنوير قد شغلتنا في مؤتمر كبير في اليونيسكو العام الماضي عن الإسلام في القرن الحادي والعشرين(٢٦-٢٧ شباط/٢٠١٩). وفيه ألقيت باللغة العربية مداخلة عن هذا الموضوع الحساس جداً. وقد أثبتها هنا في صميم الكتاب ولكن بعد توسيعها وتعميقها الى أقصى حد ممكن كما ذكرت آنفا. كل ما أستطيع قوله هو أني قلبت المسألة على كافة جوانبها حتى أضنيتها وبذلت جهدي. ثم قارنت بين الفتنة الكبرى عندنا والفتنة الكبرى التي حصلت عندهم في المسيحية بين المذهبين الكبيرين الكاثوليكي والبروتستانتي. وهما يقابلان عندنا المذهبين الكبيرين السنّي والشيعي. فالمقارنة أساس المعرفة والنظر وبضدها تتبين الأشياء. ولا بأس من الاستفادة من تجربة الأمم المتقدمة في هذا المجال. فهم أيضاً شهدوا الحرائق المذهبية والحروب الأهلية وعانوا منها الأمرين. ولكنهم خرجوا منها في نهاية المطاف بواسطة فكر تنويري عظيم. وبالتالي فالإستفادة من تجربة الأمم المتحضرة ضرورية ومفيدة جداً.

والأسئلة التي تطرح نفسها هنا هي التالية: كيف حلّوا مشكلتهم ولم نستطع نحن لا أقول حلها وإنما طرحها وتشخيصها بشكل صحيح على الأقل؟ كيف استطاعوا تشكيل دولة مدنية حديثة تساوي بين الجميع في المواطنة والحقوق والواجبات ولم نستطع نحن؟ ثم بالأخص: كيف استطاعوا تجاوز الانقسامات المذهبية المدمرة وتشكيل وحدة وطنية راسخة ولم نستطع نحن؟ هنا يكمن التفاوت التاريخي بين العرب والغرب. هذا لا يعني أننا لسنا سائرين على طريق الاستنارة والتقدم والتطور. ولكن ينبغي العلم بأن ما حققوه خلال ثلاثة قرون لا نستطيع نحن تحقيقه خلال ثلاث سنوات! فلنعط الوقت إذن لكي تنضج الظروف ويصبح التغيير ممكناً. لا ينبغي أن "نحرق الطبخة" عن طريق الاستعجال المتهور. وذلك لأن معركة التنوير العربي القادم لن تكون أقل صعوبة وخطورة من معركة التنوير الأوروبي التي خاضها فلاسفتهم الكبار بدءاً من القرن السابع عشر. لا لن تكون معركة التنوير العربي نزهة مريحة في واد من الزهور، ولن تكون سهلة على الاطلاق. وإنما ستكون عبارة عن مخاض عسير، شاق، طويل، وذلك لأن الأصولية الاسلامية لا تقل شراسة وخطورة عن الأصولية المسيحية، فهي أيضاً راسخة في العقول والنفوس رسوخ الجبال. أخيراً أقول: الآن ابتدأت معركة المعارك، أم المعارك: قصدت معركة التنوير العربي، أي المعركة الحاسمة للذات ضد الذات!

ـ لماذا اختزلت الثورات الى البعد السياسي فقط؟

نعم، كلامك صحيح. لقد حصل اختزال للانتفاضات أو للثورات الى البعد السياسي. وحصلت إدانة مشروعة للاستبداد السياسي والأنظمة البوليسية من قبل المثقفين ولكن لم تحصل إدانة واضحة للاستبداد الديني أي للجماعات التكفيرية التي لا تقل خطورة إن لم تزد أضعافاً مضاعفة. لهذا السبب فشل الربيع العربي وفقد مصداقيته. نلاحظ أنهم لا يدينون تنظيمات الإسلام

السياسي كالإخوان المسلمين والطليعة المقاتلة مثلاً. بل ولا يدينون حتى داعش! وإذا ما فعلوا ذلك فيفعلونه من رؤوس الشفاه وغصباً عنهم تقريباً. أقول ذلك وأنا أفكر بمثقفين معروفين يعيشون في باريس أو لندن أو بقية العواصم الأوروبية ويدعون أنهم مناضلون من أجل الحرية والكرامة، بل ومن أجل الديمقراطية وحقوق الانسان! ولكنهم لا يقولون كلمة واحدة عن الطائفية أو المذهبية التي انتعشت كثيراً في ظل ما يدعى بالربيع العربي. كل هؤلاء المثقفين أو الحركيين السياسيين يغضون الطرف عن الاستبداد الديني اللاهوتي. وهو في رأيي أخطر أنواع الاستبداد لأنه في نظر العامة يستمد مشروعيته من السماء. وهو الذي ثار ضده فلاسفة الأنوار الأوروبية لأنهم أدركوا جيداً أنه لا معنى للحرية والديمقراطية في ظل وجوده وهيمنته على الأرواح والعقول. فهو الذي يخلع المشروعية الالهية على الدولة اللاهوتية الثيوقراطية القروسطية القديمة. ويمنع تشكيل الدولة المدنية العلمانية الحديثة التي لا تعامل مواطنيها على أساس طائفي أو مذهبي كما تفعل الدولة الثيوقراطية الطائفية على المكشوف. وبالتالي فلا أفهم كيف يمكن لربيع عربي يقوده يوسف القرضاوي أو راشد الغنوشي أن يكون ربيعاً! ولا أفهم لماذا ينبطح المثقفون العرب أمامه وأمام جماعة الإخوان المسلمين. وفي ذات الوقت يدعون الحداثة والتحديث وقراءة هيغل وماركس! يخضعون للتنظيمات الإخونجية ويرفعون شعارات الحرية والديمقراطية! هل يمكن لتنظيمات تكفيرية تمزق نسيج المجتمع الواحد أن تكون ربيعاً عربياً؟ كل ذلك حاولت التصدي له في هذا الكتاب.

. هل نفهم من كلامك وتحليلاتك عموماً أن التفسير العقلاني للنصوص الدينية لن يحصل قبل أن تبدأ الحركة الإصلاحية داخل المؤسسة الدينية أو اللاهوتية؟

– لا، لا يمكن للمؤسسة اللاهوتية التقليدية كالأزهر وسواه أن تجري الإصلاح المنشود. هذا من رابع المستحيلات. مسبب المشكلة لا يمكن أن يحلها. يكفي أن نلقي نظرة على الصراع المستتر المندلع بين شيخ الأزهر من جهة والرئيس المصري المستنير عبد الفتاح السيسي من جهة أخرى لكي نتأكد من ذلك. ولا ننسى صدامه العنيف والفج مع رئيس جامعة القاهرة الدكتور محمد عثمان الخشت. نلاحظ أن شيخ الأزهر شخص لا يستطيع تكفير حتى داعش! فشخص كهذا كيف يمكن أن يقوم بالاصلاح الديني؟ لا، لاخير يرجى من هذه المؤسسات الدينية العتيقة البالية التي عفى عليها الزمن. لماذا؟ لأنها محكومة كلياً بعقلية العصور الوسطى الانحطاطية الظلامية. قارن بين تعليم الدين الإسلامي في الأزهر وتعليم الدين المسيحي في المعهد الكاثوليكي بباريس أو كلية اللاهوت البروتستانتي في ستراسبورغ. فرق ما بين السماء والأرض. لا وجه للمقارنة. هنا، أي في الجهة المسيحية، يحترمون عقلك وهناك يلغونه. هنا يتحدثون عن الدين بناء على ضوء أحدث المناهج العلمية والتاريخية والفلسفية وبعد مرحلة الإصلاح الديني والتنوير الفلسفي، وهناك أي في الحالة الاسلامية يتحدثون عن الدين وكأن عقارب الساعة لا تدور أو وكأن شيئاً لم يحصل في مجال معرفة الدين ودراسته وفهمه منذ ألف سنة وحتى اليوم. إنهم لا يزالون واقفين عند لحظة الشافعي والغزالي والأشعري وفتاوى ابن تيمية الخ.. أنا أستمتع جداً بقراءة كبار اللاهوتيين المسيحيين من أمثال هانز كونغ وسواه. وعندما اقرأ لهم أشعر وكأني أقرا لفلاسفة لا لرجال دين. انهم لا يفرضون عليك معتقداتهم الدينية فرضاً من فوق وبشكل فج أو إكراه قسري كما يفعل شيوخ الإسلام الذين لا يزالون غاطسين كلياً في عقلية العصور الغابرة. ينبغي أن نعترف بالحقيقة المرّة: للأسف الشديد نحن متخلفون جدا ليس فقط في العلوم الفيزيائية والبيولوجية والتكنولوجية وإنما أيضاً وبشكل خاص في العلوم الدينية. ولكننا نتوهم العكس! لا يوجد فكر جديد حول الإسلام حتى الآن. الشيء الموجود الراسخ هو الفكر التقليدي الطائفي أو المذهبي القديم المجتر والمكرور على مدار القرون. هذا هو الفكر المُدرس حتى الآن في الأزهر أو كليات الشريعة والمعاهد الدينية التقليدية التي لا حصر لها ولا عد والتي تخرج الأصوليين بالمئات والآلاف سنوياً. هذا ناهيك عن مدارس الطالبان والظلاميات المطبقة. شيء مخيف. وما دام هذا التعليم الديني القديم راسخاً ومسيطراً فلا حل ولا خلاص. لم يحصل في العالم العربي تنوير قوي كما حصل في أوروبا. لم يظهر فلاسفة كبار يضاهون فلاسفة أوروبا من أمثال ديكارت وسبينوزا وفولتير وديدرو وجان جاك روسو وكانط وهيغل ونيتشه وبول ريكور وهانز كونغ في عصرنا الحاضر. هؤلاء هم الذين أخرجوا أوروبا من ظلمات العصور الوسطى الى أنوار العصور الحديثة. وعندئذ أصبحت الدولة المدنية والحرية والديمقراطية وفكرة المساواة في المواطنة شيئاً ممكناً. لا يوجد أي فكر عقلاني عن الدين في العالم العربي. لا يوجد إلا الفكر القديم الموروث.

لا أحد يستطيع أن يأخذ مسافة معينة عن العقائد الدينية التي تشربها مع حليب الطفولة لكي يراها على حقيقتها كما هي بالضبط. لا أحد يتجرأ على انتقاد ما تلقاه من عقائد دوغمائية في طفولته من طائفته أو دينه أو مذهبه. هذا لا يعني أني أدعو الى مهاجمة الإسلام والعقائد الدينية! فالإسلام هو أحد الأديان الكبرى للبشرية. وهو يحتوي على كنوز من المعارف والتجارب والحكم ومكارم الأخلاق. ولكنه يحتوي أيضاً على الجانب الآخر المظلم والمقلق والذي أصبح يُرعب العالم: أي فتاوى التكفير والجهاد والحرب والضرب. يضاف الى ذلك أن التراث الإسلامي غير مدروس علمياً حتى الآن على عكس التراث المسيحي في أوروبا. المكتبة الفرنسية تحتوي على آلاف الكتب التي تدرس المسيحية من وجهة نظر تاريخية وعلمية وفلسفية. فما بالك بالمكتبة الانكليزية أو الألمانية؟ بالطبع هناك الكتب التبجيلية التقليدية التي تملأ الأديرة والكنائس. وهي مشروعة أيضاً. ولكن هناك الكتب التنويرية النقدية الرائعة للعقائد المسيحية. أما عندنا فلا توجد إلا الكتب التبجيلية التقليدية عن الإسلام. هنا يكمن النقص المريع في المكتبة العربية. الثورة الحقيقية سوف تحصل، أو قل الربيع العربي الحقيقي سوف يحصل، عندما تظهر كتب جديدة عن الإسلام تعادل كتب سبينوزا وفولتير وروسو وكانط وارنست رينان الخ عن المسيحية. عندما يظهر كتاب واحد له معنى عن الإسلام فسوف أصفق له وأنحني أمامه دون نقاش وسوف أقول بأن الربيع العربي قد انطلق حقاً. هذا هو المعيار الوحيد على حصول تغير حقيقي في العالم العربي، هذا هو المؤشر الأكبر على أن التاريخ ابتدأ يتحلحل، على أن حركة التاريخ انطلقت ليس فقط في العالم العربي وإنما أيضاً في العالم الكردي والتركي والإيراني والباكستاني أي في العالم الإسلامي ككل. أتمنى لو يظهر كتاب واحد عن الإسلام يعادل كتاب سبينوزا: مقال في اللاهوت السياسي. وهو يسلط الأضواء النقدية الساطعة على المعتقدات اليهودية والمسيحية. أتمنى أن يظهر كتاب واحد عن الإسلام يعادل كتابات جان جاك روسو أو فولتير عن المسيحية. أتمنى أن يظهر كتاب واحد يعادل كتاب كانط: الدين ضمن حدود العقل فقط. وكل هذه كتب ظهرت قبل مائتين أو ثلاثمائة سنة! فما بالك بكتب ارنست رينان التي أحدثت ضجة كبيرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لأنه طبق المنهج التاريخي على المسيحية وحياة يسوع لأول مرة؟ وما بالك بالكتب التي ظهرت في القرن العشرين أو الحادي والعشرين عن تجديد فهم المسيحية على ضوء العصر والمكتشفات العلمية؟ تجديد الفكر الديني متواصل في الغرب على مدار الساعة. وجمود الفكر الديني متواصل في العالم العربي منذ ألف سنة وحتى الساعة.

هناك استثناء وحيد: وهو أن تجديد الفكر الإسلامي حاصل فعلاً ولكن ليس في العالم العربي ولا الإسلامي وانما في العالم الغربي الأوروبي – الأميركي. إنه حاصل يومياً في الجامعات الكبرى كالسوربون وشيكاغو وبرنستون الخ حيث تتوفر حرية التفكير عن الدين. نعم إن تجديد الإسلام حاصل ولكن ليس في اللغة العربية وإنما في اللغات الاستشراقية الكبرى كالفرنسية والانكليزية والألمانية. ومع ذلك فما نزال نشتم الغرب ونشتم الاستشراق الذي كان له فضل تطبيق المنهج التاريخي الحديث لأول مرة على تراثنا الإسلامي، وبالتالي بدلا من أن نشكره فاذا بنا نشتمه ونلعنه ونصب جام حقدنا عليه، يا أمة ضحكت من جهلها الأمم.. مؤخراً ظهر في باريس كتاب موسوعي وجماعي ضخم بثلاثة آلاف صفحة عن القرآن بعنوان: قرآن المؤرخين. وهو يحقق اكتشافات مذهلة عن الكتاب المؤسس للإسلام. فمن سمع به؟ ثم وهذا هو الأهم: من يتجرأ على ترجمته الى اللغة العربية؟ نعم تجديد الإسلام موجود وبشكل رائع ولكن على يد كبار المستشرقين الأكاديميين لا على يد المثقفين العرب الغارقين في الأدلجات السهلة والديماغوجيات.

هاشم صالح متجوّلاً بين الأسلاك الشائكة:

عن الإسلام والحداثة والتنوير

خليل صويلح

لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ لدى هاشم صالح عدد من الأسباب المتراكمة التي أوصلت هذا المشروع إلى ما يسمّيه «الانسداد التاريخي» وهو عنوان كتابه الصادر عن «دار الساقي» بالتعاون مع «رابطة العقلانيين العرب». في مقدم هذه الأسباب يأتي غياب السؤال بل تحوّله إلى جواب نهائي من اليقينيات الصارمة «تحرسه جيوش كاملة من المراقبين والشيوخ» وأمّة بأسرها بَنَت مشروعيتها وكيانها وهويتها على «طمس السؤال».

لكن كيف نقترب مرة أخرى من منطقة السؤال؟ «الكارثة وحدها أو الزلزال قادران على زحزحة السؤال» يجيب صالح بثقة: فكلّ فكر لا يفضح ولا يعرّي ليس فكراً، وتالياً لا بد من الحفر الأركيولوجي في أعماق الساحة العربية والإسلامية لأنّ الأرض العربية عطشى للحقيقة.

هكذا يميط صالح اللثام عن «أم الأسئلة» العربية وهي «التناقض المطلق بين النصّ والواقع»، ذلك أنّ الالتزام بحرفية النص القرآني يؤدي إلى إنكار منجزات الحداثة. ويرى صالح أنّ الحل يكمن في التأويل المجازي للنص والاعتراف بمشروطيته التاريخية كما فعل المسيحيون في أوروبا بعد التنوير، وإلا فإنّ الأخذ بحرفية النص يتناقض مع الحقائق العلمية والقوانين الفيزيائية التي توصلت إليها العلوم الحديثة.

هناك مَن يطرق الخزّان اليوم، وخصوصاً بعد كارثة ١١ أيلول (سبتمبر) وقبلها هزيمة الـ١٩٦٧ وسقوط الخطاب الشيوعي واندثار الأيديولوجيات الديماغوجية. كل ذلك يدعو إلى الإجهاز على اليقينيات ومواجهة ريح التاريخ بعدما وصل العرب إلى قعر البئر. يتساءل صالح: «هل نحتاج إلى صدمات أخرى كي نستيقظ من هذا السبات الطويل؟». ويعتبر صالح أنّ العائق يكمن في قناعة العرب بأنّ تأجيل المشكلة أو خنقها يعني حلها أو تجاوزها. مع العلم أنّ المنهجية العلمية والخبرة التاريخية الحديثة تدلان عكس ذلك. وعلى رغم ذلك، فنحن مصرّون على منهجية الكبت والقمع لتتراجع الديموقراطية أكثر وتفقد معناها في القاموس حتى لو استُبدلت بمفردة «الشورى» في غياب شروطها التي تتمثل في الرخاء الاقتصادي وتناقص الضغوط الخارجية، وتراجع الثقافة الأصولية القوموية الاستبدادية.

ويعتقد صالح أنّه آن الأوان للانتقال من المرحلة الأيديولوجية إلى المرحلة الإبستمولوجية، وخصوصاً بعد خراب العراق ولبنان وفلسطين، إذ ضمر الحس التاريخي لدى أصحاب الأيديولوجيات المتنافرة، سواء كانت «ماركسوية» أو قومية أو أصولية إسلامية، بابتعادها عن مفهوم الحقيقة. وبات ضرورياً للخروج من «الانسداد التاريخي» أن ينبثق خطاب فكري جديد يتحلّى بدرجة عالية من الحس أو الوعي التاريخي بموازين القوى العالمية والهجس بالحقيقة إلى درجة الهوس. لكن قبل ذلك، ينبغي تحرير الروح العربية الإسلامية من قيودها التاريخية في معركة طويلة الأمد لتشخيص المرض ونبش الحقيقة المطموسة تحت ركام القرون.

هكذا يتجوّل هاشم صالح بين الأسلاك الشائكة ويمضي في طرح الأسئلة الراهنة عن الإسلام والحداثة والفكر العقلاني والتنوير وفشل الإصلاح الديني في الإسلام لتشخيص المرض المستعصي.

عن الاخبار اللبنانية

هاشم صالح يدعو إلى تفسير عقلاني للدين والتراث الإسلامي

سيد أحمد رضا

هل يحق لنا أن نخوض معارك في مساحة صغيرة كمساحة العقل البشري؟ في الحقيقية نحنُ نفعل ذلك بالمعنى المجازي والحقيقي لكلمة معركة، نحنُ نخوض المعارك الفعلية بعقولنا، والمجازية بذات العقول... لكن دعوني أصطحبكم لمعركة لطالما خاضتها البشرية بمختلف مجتمعاتها، وعلى أساسها تنهض الأمم وتتقدم... مساء الاثنين (١٧ مارس) كان المفكر السوري هاشم صالح في ضيافة مركز الشيخ إبراهيم للثقافة والبحوث ضمن موسمه «الحب طاقة إبداع» وبالتزامن مع فعاليات ربيع الثقافة، في هذا المساء، حاضر هاشم عن «معركة التنوير العربي» شارحاً مقوماتها، ومقارناً بينها وبين معارك التنوير التي خاضها المجتمع الغربي قبل عدة قرون.] ما بين الانفتاح والانغلاق - «ربما لا تكون معركة فحسب، بل هي أم المعارك بالنسبة للعرب والمسلمين» هكذا يبدأ صالح حديثه ليتبعه بنبوءةٍ تتعلق بانحسار الموجة الأصولية التي اكتسحت عالمنا العربي خلال الأربعة عقود الماضية. نبوءة لا تتعلق بالغيبيات إنما هي قراءة لواقع التيار المتشدد في فهمه لرسالة الإسلام والقرآن، حيثُ أوصلهُ هذا الفهم إلى طريقٍ مسدود.

يوضح هاشم أن جوهر الإسلام هو احترام الآخر، والاعتراف به، ذلك لأن الله هو من شاء هذه التعددية، وهو من قال في كتابه «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة»، لذلك يؤكد صالح أن الأصل في الإسلام هو التسامح لا التعصب، المغفرة لا الكره.. وبعد هذا المدخل يتعمق هاشم في إيضاح الصراع الكائن بين تياري التشدد والانفتاح، والذي لا ينحصر بالوقت الراهن، بل يمتد على مدى تاريخنا، ويستدل على ذلك بنص للفيلسوف الكندي كتبه رداً على الفقهاء المتشددين، المحرمين للفلسفة في ذلك الوقت. ويضيف «أكاد أقول بأنه كتب اليوم» يقصد ذلك النص الذي كتب قبل أكثر من ألف عام، ولاتزال المواجهة قائمة!] استراتيجية التنوير – يضع هاشم استراتيجيتين يمكن لمعركة التنوير اتباعهما خلال السنوات القادمة؛ الأولى استراتيجية التنوير الداخلي وهي المنبعثة من دواخلنا.. يشرح صالح ذلك بالقول بأن علينا أن نجمع نصوص الفلاسفة والمفكرين والعظماء في العصر الذهبي، أو عصر النهضة الإسلامي، ومن ثم «نقوم بوضعها ضمن سياقها التاريخي، وترجمتها إلى العربية المعاصرة». ويضيف هاشم «ذلك للكشف عن العظماء في تاريخنا، وللبرهنة على أن الدين الإسلامي لا يتعارض مع العقل والفلسفة والعلم» وبذلك يمكننا تحقيق هدف من أهداف مواجهة الانغلاق عبر إبراز الأدبيات التراثية الانفتاحية، في مقابل تلك الأدبيات التراثية الانغلاقية الأكثر شيوعاً على مستوى المكتبات، ومعارض الكتب، كما يذكر هاشم. «إذاً بالتنوير الداخلي نساعد على إعادة بعث الصفحات المضيئة في تاريخنا بصورة معاصرة» تكون في متناول الجميع من الفئات العمرية الأولى كطلبة المدارس، إلى النخب المثقفة.

أما عن استراتيجية التنوير الخارجي فيقول صالح بأنها تكون عبر استعانتنا بالفلاسفة التنويريين الأوربيين، وبصورة مختلفة؛ كترجمة كتبهم، وتلخيصها، وإشاعتها، ولا يكتفي بذلك بل يذهب هاشم إلى ضرورة مقارنتها، وذلك «لكي لا نُحبس في دائرة تراثنا، ولنرى كيف يعيش الآخرين عقائدهم، وكيف يفهمونها».] التحرر من السياجات – «نحن لا نعرف الصفحات المضيئة من تراثنا.. الشائع هي الكتب التراثية التقليدية، التي لا تغني العقل كثيراً» هذا ما يقولهُ هاشم صالح تأكيداً على ضرورة إزاحة التراب عن تراث مضيء إلا أنهُ أهمل في مقابل التراث التقليدي الذي يدعوه المفكر الجزائري محمد أركون بـ «السياجات الدوغمائية المغلقة» تلك التي تتعصب لفكرة عقائدية دونما قبول لمناقشتها أو نقدها. ويضيف هاشم «علينا أن نخرج من هذا السجن العقائدي الذي تنغلق فيه الأسوار العقائدية لكل دين أو طائفة» وذلك وصولاً إلى عقلنة التراث العربي الإسلامي، وعقلنة فهم الدين، ولا يتم ذلك إلى بخوض معركة التنوير مع الذات «لينبثق النور منها». ويؤكد هاشم أن «إعادة العقل والفلسفة إلى العالم العربي؛ إعادة للاعتبار» لكنهُ لا يدعو لفلسفة تجريدية عصية على الفهم، بل إلى فلسفة تقود للتصالح بين العلم والإيمان.. وتكون سنداً إليه، وبذلك «لا ينبغي أن نخشى على إيماننا ودينا من الفلسفة إذا أحسن استخدامها».] ضرورة فلاسفة النور – هاشم وهو الباحث المختص في التنوير الأوروبي، يؤكد أن أغلب فلاسفة الغرب الكبار كانوا مؤمنين، ويضيف «هناك فلسفة تنويرية مادية ملحدة» لكن في المقابل هناك فلسفة تنويرية مؤمنة ساهمت في ارتقاء أوروبا منذُ العصور الوسطى على جميع الأصعدة.

ويتساءل «لماذا ظهر فلاسفة النور في أوروبا؟ » ليجيب عن ذلك بالعودة إلى تاريخ الصراعات الدينية والمذهبية التي طحنت أوروبا، ودمرت إنسانها على مدى عقود، حيث ظهور التنوير «كحاجة ماسة لعلاج المجتمعات، وتخليص الشعوب من الوباء الطائفي الذي اجتاحها ودمرها». ومن هنا يحيل هاشم المسؤولية على المفكرين والمثقفين في تفكيك الأحكام الطائفية المسبقة، التي هي في الأساس كلشيهات تبتكرها كل طائفة عن الأخرى، وتقوم بتعليم أبنائها هذه الكلشيهات المبتذلة عن غيرها من الطوائف!] دروس تقينا الجحيم – يوضح صالح بأننا «نحن العرب والمسلمين، لدينا تجارب الشعوب المتقدمة، فلماذا لا نتعظ بها؟ » وهنا يعني صالح تلك التجارب المأساوية التي خاضتها أوروبا من خلال حروبها الطائفية الطاحنة، وطريقة الخروج من هذا الجحيم.. وبالنظر لهذه التجارب يتوجب علينا أن نتعظ «ونوفر على أنفسنا الحروب التي ستدمرنا بلا أية نتيجة».] أرخنة التراث – يدعو هاشم إلى أرخنة التراث العربي الإسلامي، والقرآن الكريم، والأرخنة هي السبيل إلى التنوير الذي هو «العودة للنص المقدس بعيون أخرى» غير تلك العيون التي اعتادت قراءته لمجرد الشعائرية، ويضيف «كل شيء تلقيته بشكل مثالي تقديسي فوق الزمان والمكان، عليّ إعادة موضعته في الزمان والمكان التاريخي». ويفصح صالح عن حقيقة كون «الذي أرخن تراثنا هم كبار المستشرقين» وهنا لا يعني هاشم الاستشراق المُسيس المغرض، بل ذلك «الاستشراق الأكاديمي عالي المستوى» ويورد عدد من الأسماء الاستشراقية التي أرخنة تراثنا. مضيفاً بأننا لا نستطيع تحاشي الدراسات التاريخية، وتطبيق المنهج التاريخي النقدي على التراث الديني، فحتى وإن تحاشيناه لزمن معين، فهو سيظهر ولا بد في نهاية المطاف.

ويشكك هاشم في مقدرة المثقفين العرب على تطبيق المنهجية الفينولوجية –دراسة المتغيرات– التاريخية على التراث وذلك لسببين، الأول أنهُ يجب أن يكون المثقف متقناً لهذا المنهج، بالإضافة لمنهج البحث العلمي، أم السبب الثاني فهو خوف المثقف على نفسه إذا ما فعل ذلك «لأنهُ مضطر للهجرة إلى الخارج».] خوض المعركة – يختتم هاشم صالح حديثه عن معركة التنوير بالتأكيد على أنها «معركة كر وفر»، ولا بد أن تخاض هذه المعركة مع الذات «ليس من أجل حذف الدين من الساحة، بل من أجل التوصل إلى فهم جوهر الدين، بالإضافة للفهم العقلاني المستنير للدين» كل ذلك كما يقول هاشم من أجل «مصالحة الدين مع الفلسفة، وتصالح الإنسان مع ذاته». ذلك التصالح الذي لا يجعل الإنسان أسيراً لهواجس تخلقها التناقضات ما بين العلم والدين، أو الفلسفة والدين، والتي تخلق بدورها أزمة وعي مع الذات يقر هاشم بأننا دخلنا –كعالم إسلامي– فيها. ولهذا وقبل أن ينتقل للمداخلات ويجيب على الأسئلة، شدد صالح على ضرورة «التفسير العقلاني لتراثنا العظيم، والذي عن طريقه نصل إلى شاطئ الأمان ".

عن صحيفة الايام

هاشم صالح يدرس حال العرب بين النور والظلمات

شكيب كاظم

ثمة مصادفات جميلة تغير مسيرة شخص ما، وتضيف إلى منجزاته، منجزات أُخَر، قد لا تخطر على بال، فتشاء هذه المصادفات الحاسمة في حياة البشر، أن يُرسَل هاشم صالح المعيد في جامعة حلب، سنة ١٩٧٦ إلى فرنسا للدراسة في السوربون، لغرض الحصول على درجة الدكتوراه، كان هذا فاتحة عهد جديد أمام هاشم صالح، الذي تعرف على المفكر الجزائري محمد أركون، الذي سيمسي أستاذه المشرف على كتابة أطروحته في النقد الأدبي.

وكان طبيعياً أن يتقن اللغة الفرنسية، بل يحذقُها، وأضحى يكتب بها إلى جانب لغته الأم، العربية، هو يرى ضرورة اللغة الثانية وحتى الثالثة للباحث والدارس، لأنها تفتح أمامه آفاقا واسعة، قد لا يكون بمكْنة اللغة الواحدة تلبيتها، إن من لا يجيد لغة ثانية أشبَه بالأمي، حصل أن اشترك في مؤتمر ثقافي في فرنسا، وشاءت أمور أن تسود اللغة الإنكليزية في مناقشات هذا المنتدى، فألفى هاشم صالح نفسه أشبه بالأمي، هو الذي يجيد الفرنسية إلى جانب لغته العربية، لكن تحول النقاش في المؤتمر إلى استخدام الإنكليزية، أشعره بضعفه، فما بالك بمن لا يجيد حتى لغته القومية؟

تلمذته للمفكر والفيلسوف محمد أركون، وقربه منه فتحت أمامه آفاقا واسعة، فضلا عن إجادته الفرنسية، فأمسى يقرأ ما تغدقه المطابع الفرنسية، مؤكداً أنه يقرأ ثلاثة أو أربعة من الكتب في الشهر، وتولى ترجمة الكثير من مؤلفات أركون، وإذ يسأله سائل لماذا لم تترجم كتب أركون كلها؟ يجيب بدقة العالم وتواضعه؛ إنها تحتاج لجهد مترجمين، وليس مترجما واحداً، واصفا إياه بأكبر مفكر في الإسلام المعاصر، منذ عهد العمالقة الكبار: الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وابن خلدون، وإنه لم يعد يهدف إلى تحقيق الإصلاح من داخل القفص العقائدي المغلق، وإنما أصبح يهدف إلى تفكيك هذا القفص والخروج منه كلياً، وهو ما فعله فلاسفة الأنوار في أوروبا بدءا من سبينوزا في القرن السابع عشر. أما لماذا يصفه بأكبر مفكر في الإسلام المعاصر؟ فلأنه مفكر صعب وعالم كبير متبحر في العلم، وإنه استطاع أن يجلب اهتمام كبار الباحثين الفرنسيين، والوقوف عند منجزه.

التعريف بكتب معمة

يرى هاشم صالح في كتابه «العرب بين الأنوار والظلمات.. محطات وإضاءات» الذي أصدرت دار المدى طبعته الأولى سنة ٢٠٢١، إن فضيلته الأولى في كتابه هذا، تقديمه عروضا لمجموعة من الكتب الفرنسية، التي اتيح له الاطلاع عليها، وتعريف القراء العرب، الذين لا يعرفون الفرنسية، وإذا أجادوها فصعوبة الحصول

على الكتاب الفرنسي في العالم العربي، واضعين في الحسبان كسل حركة الترجمة العربية، فضلا عن قلة المترجمين، الذين يُحكّمون الضمير والوجدان في عملهم، مؤكداً أن من لا يعرف سوى العربية، لا يمكن أن يتوصل إلى فتوحات الحداثة، والفكر البشري بشكل عام، لقد أصبح شخصاً أميا تقريباً! لقد تعرفنا من خلال هذا الكتاب على عدد وافر من المفكرين والفلاسفة الفرنسيين، أعترف بتواضع أن أسماءهم تطرق ذاكرتي للمرة الأولى: إدغار موران، جان دورميسون، لوك فيري، جيل غاستون غرانجيه، برنارد ديسبانيا، ريمي براغ، نيلز بور، توماس كن، جان ستون، عالم اللاهوت السويسري الشهير هانز كونغ وغيرهم، فضلا عن مفكرين عرب ومسلمين: عبد الوهاب المؤدب، فتحي سلامة، مالك شبل، رشيد بن زين، يوسف الصديق، عبد النور بيدار، المازري حداد، المفكر الباكستاني فضل الرحمن وغيرهم، كما أنه عمّق معرفتنا بالكثير من الفلاسفة والمفكرين العرب والمسلمين والأوروبيين: الفارابي، ابن رشد، ابن خلدون، جيل كيبل، سبينوزا، كانط، لايبنتز، ديكارت، فولتير، ديدرو، مونتسكيو، جان جاك روسو، آرنست رينان، نيتشه، سارتر، مورغان هابرماس، جاك دريدا، بول ريكور، كارل بوبر، التوسير وغيرهم كثير.

وإذ ذكر هاشم صالح «اعترافات جان جاك روسو» ضمن الكتب التي يجب قراءتها قبل فوات الأوان، فإنه يؤكد أهمية هذا الكتاب بفصل عنوانه (ما هو أعظم كتاب أثر فيّ في فرنسا؟) مؤكداً أنه أعظم اكتشاف له منذ وصل فرنسا سنة ١٩٧٦، ولو لم يقرأ غيره لكفاه فخرا، ولما ذهب مجيئه لبلاد فولتير وموليير سدى، أما لماذا يعطيه الأهمية؟ فلأنه مفعم بالنزعة الإنسانية.

كتب غيّرت وجه التاريخ

هاشم صالح في كتابه هذا «العرب بين الأنوار والظلمات» المولود سنة ١٩٥٠، في إحدى قرى محافظة اللاذقية، أمضى نحو ثلاثة عقود في فرنسا، قبل أن ينتقل للعيش في المغرب، يعقد فصلا عن الكتب التي غيرت وجه التاريخ، ولأنه يرى صعوبة النص على كتب بعينها، غيرت وجه التاريخ ووجهته، فإنه يقسمها إلى أبواب: أولا أمهات الكتب العلمية؛ ومنها كتاب «أصل الأنواع» لداروين، و«تفسير الأحلام» لفرويد، فضلا عن كتب لباشلار و«كيف أرى العالم؟» لأنشتاين.

ثانياً: أمهات الكتب الفلسفية، واقفا عند كتاب «مقال في اللاهوت السياسي» لسبينوزا، فضلا عن كتاب «اعترافات جان جاك روسو» وبقية كتب روسو ذات النزعة الإنسانية العميقة، التي يفضلها على كتب نيتشه، لكن أسلوب نيتشه يسحره.

ثالثاً: الروائع الأدبية، واقفا عند أشعار أبي تمام الطائي والمتنبي والسياب وخليل الحاوي، ونجيب محفوظ وروايات تولستوي، فضلا عن كتب سيتحدث عنها في فصل (ما هي الكتب التي ينبغي أن تقرأها قبل فوات الأوان؟).

ورابع الكتب التي غيرت وجه التاريخ؛ أمهات الكتب التنويرية للدين، أو المنورة له، وهي الأكثر إلحاحا وضرورة للعالم العربي، فلا يمكن أن يخرج من ظلماته وعتماته من غيرها، فالمعركة فكرية قبل أن تكون سياسية، مؤكداً ضرورة الوقوف عند كتب محمد أركون، لأنه سيغير وجه التاريخ العربي الإسلامي، إن فهم على حقيقته.

أغلب الباحثين والدارسين يقتنون الكثير من الكتب، واستغرب من الأعداد الهائلة التي تحتويها مكتبات بعضهم، وأتساءل مع ذاتي، هل بمكنة الإنسان مهما أوتي من وقت وتفرغ وراحة بال، أن يقرأ هذه الكتب كلها؟ حتى إذا انطوى العمر البشري القصير، رأيت الحسرة بادية على الوجوه، أن لم يستطع قراءة جُلّ، ولا أقول كل هذه الكتب التي اقتناها، لذا أؤكد ضرورة الدقة في اختيار الكتاب المقروء، والاستغلال الأمثل للوقت، وها هو المفكر المغربي محمد عابد الجابري، يطلقها حسرات مدويات، أن لم يستطع قراءة كل ما رغب في قراءته، لذا فإن المفكر الباحث هاشم صالح، الذي في شطحة من شطحاته، التي تشبه شطحات المتصوفة، ينزع عن نفسه صفة المفكر الباحث، واصفا نفسه بالقارئ فقط!

أقول: يكتب هاشم صالح فصلا جميلا يضع خبرته بين أيادي القراء مُبصّرا إياهم بضرورة قراءة كتب بعينها قبل فوات الأوان، وانصرام سنوات العمر القليلة سراعا، مشيرا إلى رواية «دون كيشوت» لسرفانتس، وثانيا: كتاب «ألف ليلة وليلة» وثالثا: «رسالة الغفران» لعبقري العباقرة؛ أبي العلاء المعري، وكتاب «البخلاء» للجاحظ المعتزلي رابعا، وخامسا: اعترافات جان جاك روسو، وقد دفعني هذا الفصل لقراءة الجزء الأول من الاعترافات، التي صدرت سنة ١٩٥٧، ضمن مطبوعات (كتابي) التي كان يشرف عليها ويصدرها حلمي مراد، وتولى ترجمة الأجزاء الخمسة، محمد بدر الدين خليل – والكتاب من خزانة كتب المرحوم أبي – وقد نقلها المترجم بلغة أنيسة مأنوسة، تدفعك لإعادة قراءة بعض النصوص مرات عدة، ثم يواصل تقديم كتب قرأها بالفرنسية، ولم تترجم إلى العربية، فلم أجد سببا يدفعني لذكرها.

وكان لا بد للباحث أن يعقد فصلا عن أستاذه في السوربون؛ محمد أركون، واصفا إياه بأكبر مفكري الإسلام المعاصر، لأنه جاء بفكرة – فضلا عن فتوحاته الفكرية الأخرى – أن العرب المسلمين قد عرفوا التنوير والنزعة الإنسانية الحضارية، قبل الغرب الأوروبي بقرون، على أيادي الجاحظ والتوحيدي ومسكويه وابن سينا والفارابي والمتنبي والمعري وابن العربي وعشرات العباقرة، قبل إيطاليا وأوروبا بقرون عدة، لكن انطفأت هذه الحركة بسقوط الدولة العباسية، وتصدي بعضهم لهذه الحركة التنويرية ومنهم الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» الذي سيرد عليه ابن رشد في كتابه «تهافت التهافت». هذه النظرية الأركونية أثارت جدلا بين الدارسين الأوروبيين، الذين يرون أسبقية أوروبا في هذا المجال.

وإذ ذكر هاشم صالح «اعترافات جان جاك روسو» ضمن الكتب التي يجب قراءتها قبل فوات الأوان، فإنه يؤكد أهمية هذا الكتاب بفصل عنوانه (ما هو أعظم كتاب أثر فيّ في فرنسا؟) مؤكداً أنه أعظم اكتشاف له منذ وصل فرنسا سنة ١٩٧٦، ولو لم يقرأ غيره لكفاه فخرا، ولما ذهب مجيئه لبلاد فولتير وموليير سدى، أما لماذا يعطيه الأهمية؟ فلأنه مفعم بالنزعة الإنسانية.

هاشم صالح وسؤال التّنوير

كه يلان مُحمد

تعاني المجتمعات العربية والإسلامية من الأزمة الحضارية المركبة فالتخلفُ متغلغلٌ في مفاصل النظام السياسي وبرامج التعليم وآليات القراءة للدين فإنكار هذا الواقع البائس يزيدُ من عمق الأزمة ويثقل الأغلال على العقول لذلك فمن الضروري تسمية الأشياء بأسمائها وعدم الهروب من مواجهة المنظومة الفكرية المتداعية والتراكمات الجاثمة على حركة التاريخ إذا أريد لهذه المجتمعات النهوض من كبوتها التاريخية والتعافي من قصورها العقلي طبعاً يتطلبُ تشخيص مواطن الداء وأسباب الإنحطاط الحضاري وجود مشاريع مساندة لخطاب العقل والتنوير الفكري ومن المعلوم أن الخوف من الفكر لدى السلطات السياسية لا يوازيه سوى الخوف من الموت حسب رأي "أدونيس" الأمر الذي يصعب إنطلاقة التيار العقلاني لاسيما في ظل تفاقم ظاهرة الجهل المؤسس بالدين وهمينة التطرف اللاهوتي وفوضى الفتاوى والعودة إلى معجم التكفير والزندقة والأبلسة. عليه يستحيل تحقيق السلام الإجتماعي في مثل هذا المناخ المتفجر بالكراهية المذهبية والدينية والعرقية فالسلام كما يقول روسو لايحل بين شخصين يعتقدُ أحدهما بأنّ الآخر يدخل الجحيم. كما أن السلام العالمي لا يتحقق قبل السلام بين الأديان "هانزكونغ" إذاً فإنّ أساس المشكلة هو الخطأ في قراءة النصوص الدينية وتوظيفها لأغراض سياسية بحتة بحيث يتخذ الدين نمطاً أداتياً يغلبُ عليه المظهر الإستعراضي على حساب أبعاده الروحية. وعندما يكون الإهتمام بالقشور يسبق التبصر بالجوهر في التعاطي مع المفاهيم الدينية والفكرية والسياسية لن يحصل سوى الإرتداد إلى الوراء أو ما يسميه الكاتب والباحث السوري "هاشم صالح" السير بالمقلوب وهذا ما يؤرقه ويشتغل عليه منذ ثلاثة عقود ونيف في مؤلفاته التي ترصد مسيرة التنوير الأوروبي وتمكن قادتها المفكرين والفلاسفة من تقويض اللاهوت القروسطي وما حققه هؤلاء على الصعيد الفكري الذي كان نواةً للتحولات الجذرية في بنية الأنظمة السياسية ما يعني أن الثورة السياسية بدون المضمون الفكري لا يعقبها إلا التغيير في الشكليات دون المنظومة الكلية. فالثورة الحقيقية هي القبض على الجوهر على حد تعبير أدونيس. والخطوة الأولى في طريق التنوير تبدأ بفك الإنغلاقات الأصولية وذلك ما يمهدُ برأي صاحب "مدخل إلى التنوير الأوروبي" للإنتقال من مرحلة الأحادية المذهبية أو الدينية إلى مرحلة التعددية والتعايش بين المذاهب والأديان.

المقارنة

يعتمدُ هاشم صالح على مبدأ المقارنة بين ما مرّ به الفضاء الأوروبي إبان القرون الوسطى من الإنكفاء العقلي وما يعيشه فيه العالم الإسلامي والعربي من الأزمة مع قيم الحداثة ومن هنا يريدُ مؤلف "الإنسداد التاريخي" فهم ظاهرة التحنط الفكري في بيئاتنا على ضوء تجارب الفلاسفة الأوروبيين مع التيارات المتطرفة والأنظمة الإقطاعية الفاسدة. نعم قد يبدو أنّ المجتمعات العربية معاصرة للغرب على المستوى الظاهري لكن تفصلها عصورٌ من الإنقطاعات المعرفية والكشوفات العلمية عن العالم الحديث. فما يسودُ في الخطاب السياسي والديني الملغمتين بالتطرف اللاهوتي عن الفرقة الناجية مطابق للمنزع الإلغائي في المذهب الكاثوليكي الذي كان يرى بأنّ خارج شرائعه لا نجاة للإنسان ما يعني وجود مسافة التفاوت التاريخي بين العرب والغرب وفقاً لرأي هاشم صالح الأمر الذي يحدو به لمتابعة مشروع التنوير بحثاً عن الحلول لما يصطلح عليه بالإستعصاء التاريخي إذ يتوقف في كتابه "معارك التنويريين والأصوليين في أوروبا" عند الفلاسفة الذين كانت أفكارهم قواماً للحداثة الغربية ومن خلال ما يقدمه يتضح أن هناك ترابطاً في موجات النهضة الأوروبية إلى أنّ يتمّ تتويجها على المستوى الفكري والمعرفي بتعريف كانط لمفهوم التنوير المتجسد في إنعتاق العقل من الوصاية والخروج من قصوره. على الرغم من إقامته في فرنسا منذ ١٩٧٥ لكن يواكب صاحب "الإنسداد اللاهوتي" الأحداث المداهمة للعالم العربي فمنذ إنطلاقة الحراك الجماهيري في ٢٠١١ يراقبُ حيثيات المشهد عن كثب ويراجع آراءه أحياناً حيثُ يشيرُ في " الإنتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ" بأنّه قد جانبه الصواب في وصفه للحركات الإحتجاجية بأنها ثورات تنويرية على غرار الثورة الفرنسية كما لا يفرق في كتابه الأخير "لماذا يشتعل العالم العربي؟" .

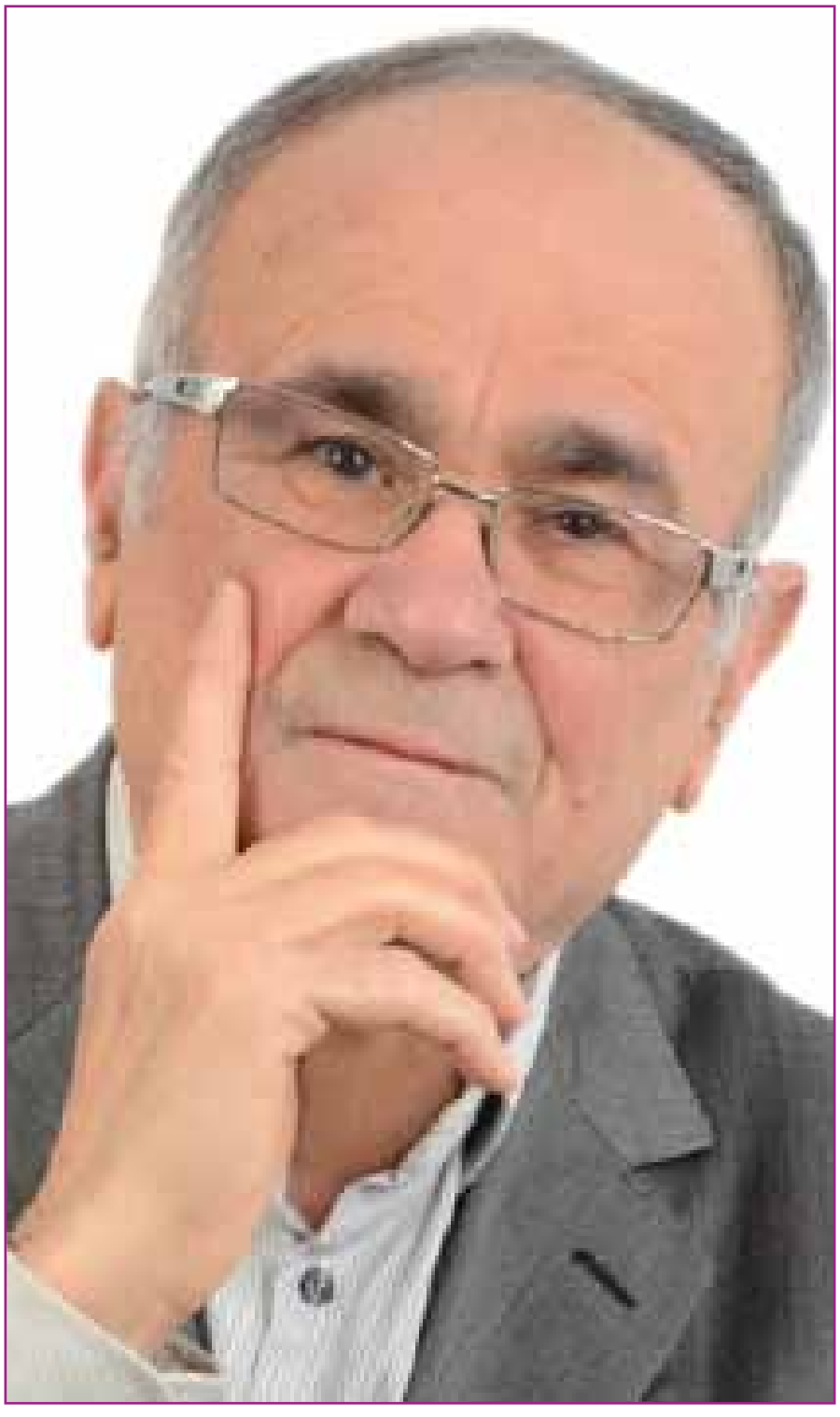

بين أردوغان وغيره من زعماء الأحزاب الدينية علماً بأنه قد اعتبر حزب العدالة والتنمية ممثلاً التيار العقلاني وطالب الاخوان السوري الإقتداء به. ويفهمُ مما ذكر آنفاً أن هاشم صالح أبعد ما يكون من الجمود ولا يتابعُ التطورات من البرج العاجي بل هو منخرط في الواقع وما يلفتُ الإنتباه في مؤلفاته هو تتبعه لتفاصيل الأحداث بما فيها حروب الفتاوي بين أتباع المذاهب وبذلك يضعُ القاريء أمام الصورة بأبعادها المُتكاملة كما لا تغيبُ تجاربه الذاتية في معاركة الإشكاليات التاريخية والثقافية إذ يحفرُ في أقبية الذات وينشقُ عن نفسه قبل الحديث عن الإنشقاق من التيار المتزمت وعلى هذا الصعيد يعلنُ ثورة على والده وما يعنه ذلك من دلالات رمزية فكان الوالد رجل الدين تكتنفُه هيبة المقدس وهو يحاول تعامل مع ماضيه بمنهج ديكارتي أي قيام بتدميره وتفكيكه قبل إعادة التركيب. وهذه العملية يجبُ أن تمتدَ إلى المسلمات التراثية والطبقات التاريخية السحيقة ولا يمكن فهم جذور العنف والتخلف الفكري دون العودة إلى النص القادري الذي كان إيذاناً بهزيمة التيار العقلاني وتفوق الأحادية الطائفية والمذهبية. تقعُ على عبارة ديكارت " قررت أن أدمر كل أفكاري السابقة" أكثر من مرة في فصول الكتاب وما يقوله المؤلف عن الإنسان المبدع الخلاق الذي لن ينهض إلا بعد تصفية حساباته مع نفسه وبيئته الصغيرة تفصيل للصيغة الديكارتية يعترفُ هاشم صالح بأنه قد حفر في أعماق شخصيته قبل الدخول إلى المعترك التراثي. وكانت البداية مع دحض موقف التراثيين المعادي للشعر الحر في أطروحته التي قدمها تحت عنوان "اتجاهات النقد العربي الحديث "١٩٥٠-١٩٧٥".

تتوارد في سياق الكتاب شواهدُ عن تجارب ذاتية وسلوكيات إجتماعية وسياسية تكشفُ عن رواسب العقلية الإصطفائية داخل المجتمعات الغربية غير أنّ ذلك ليس إلا حالات فردية قياساً بنجاح الغرب في تأسيس مفهوم المواطنةً فالإنسان لدى فلاسفة الأنوار قيمة بحد ذاته بقطع النظر عن إنتماءاته الفرعية يقول مونتيسكو " أنا إنسان بالضرورة ولستُ فرنسيا إلا بالمصادفة" وبهذا إكتملت القطيعة الأبستمولوجية مع البارادايغم اللاهوتي القروسطي. يقارنُ الكاتبُ بين آليات القراءة للاهوت الديني في الغرب وما هو متبعُ في جامعاتنا ويشيرُ في هذا الإطار إلى مسعى اللاهوتي السويسري هانز كونغ حيث طبق الأخير نظرية توماس كهن على تاريخ اللاهوت الديني يوجد بارادايغم القرون الوسطى وبارادايغم الإصلاح الديني إلى أن يصل بارادايغم مابعد الحداثة. ويؤكدُ هاشم صالح على ضرورة أرخنة النص الديني والتمييز بين النصوص الكونية وما هو مطبوع بظروف تاريخية محددة.

التّفاؤل الفلسفي

رأى كثير من المتابعين في إنطلاقة الحراك الجماهيري في ٢٠١١ منعطفاً تاريخياً و بدوره تفاءلَ صاحب "مخاضات الحداثة التنويرية" بالحدث غير أنّ التطورات اللاحقة لم تكن مثلما توقعه لذلك يصف في كتابه الجديد ما وقع بالربيع المشؤوم والظلامي ويتنبأ بأن الربيع الحقيقي سوف يكون في ٢٠٥٠ أو ٢٠٧٠ وأن إسلام الأنوار آت دون أن يقدم معطيات مسوغة لهذا الرأي بل يؤكدُ في الفصل الأول من كتابه غياب أمارات ترهص بالربيع التنويري أزيد من مما سبق فإنّ الكاتب يسخرُ مما يسميه بماركسيات مبتذلة وينفي وجود العلاقة بين البنية التحتية والبنية الفوقية فيما يضعُ العامل الإقتصادي في مقدمة أسباب إنفجارات الربيع العربي وبرأيه أن الدول النفطية تداركت التمرد الجماهيري مسبقا عن طريق تحسين المستوى المعيشي لمواطنيها ويذهب أبعد من ذلك في" الإنتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ" إذ يربط إندلاع الثورة الفرنسية وتأسيس دولة القانون بنشوء الطبقة البرجوازية التي احتضنت الأفكار الجديدة وهذا التحليل يتنافى مع رفضه لدور البنية التحتية في التحولات السياسية. الفكرة المحورية في "لماذا يشتعل العالم العربي" هي أن لاثورة سياسية دون ثورة فكرية تضيء لها الطريق. غير أنّ مايحددهُ علامة للمثقف التنويري في هامش ص "٨١" يوحي بأنّ العكس هو الصحيح ويسبق الزعماء السياسيون المثقفين في الإستنارة. يحمل هاشم صالح المثقفين مسؤولية الوضع المزري لواقع المنطقة ولا يرى فيهم أكثر من الأبلة المفيد الذي يخدمُ قضية تناقض مع فكره العميق وحتى مع مصلحته. والحال هذه فإن الإستمرار في الفشل يحتمُ التعويل على الآخرين بنظر هاشم صالح لعبور بنا نحو ضفة التنوير وهذا يعني أن الخروج من القصور العقلي قد لا يتحققُ وتبقى المنطقة تحت حكم الوصاية. يترجحُ التفاؤلُ لدي صالح فهو يؤمنُ بما اكتشفه هيغل عن استخدام القوى السلبية المضادة لحركة التقدم من أجل التقدم ذاته. وهذا ما يصطلح عليه بمكر العقل. إذاً فإن الحمم البركانية التي تتفجر وإعتلاء القوى المتطرفة المثقلة بتاريخ دام على سدة السلطة مخاضات لإنطلاقة التفكير العقلاني. ًمايجبُ الإشارة إليه أنّ أسلوب هاشم صالح يتصفُ بالوضوح والخفة وهو يتفادى التقعر المفاهيمي والمصطلحات المعقدة في مناقشته للمناهج الفكرية. كما أنّ شذرات مبثوثة من الذكريات والتجارب الذاتية وصداقاته الفكرية مع عفيف الأخضر وأدونيس وجورج طرابيشي هذا ناهيك عن صداقاته الغرامية وهي في محل ثان تضفي خصوصية لكتابه الأخير الذي ما يردُ في هوامشَ صفحاته لا يقل أهمية من المتن. ولو لا التكرار في بعض الصيغ والفقرات لكان الكتابُ قد جمع الى جانب الإفادة الفكرية والمتعة الذهنية الرشاقة في التناول أيضا.

كتب هاشم صالح:
صرخات عالية وعلمية من أجل التنوير وطرد الأصولية

قراءة - ممدوح المهيني

قبل ثلاثين عاماً قرر المفكر السوري هشام صالح أن يسافر إلى فرنسا من أجل أن يكمل دراسته في الأدب وليصبح شاعراً وناقداً أدبياً. بعد ذلك قرر أن ينخرط في عالم الفكر والفلسفة. بعد ثلاثين سنة يمكن لنا القول ان هذا كان أهم قرار اتخذه هاشم ليس فقط من أجل نفسه ولكن من أجلنا نحن. بالرغم من نشره لقراءات عديدة رائعة عن الشعر والأدب إلا أننا كنا بحاجة إلى رجل مثله يلعب دوراً تنويرياً كبيراً نحن في حاجة قصوى إليه.

في الواقع ان هاشم يختلف عن كثير من المهتمين بالفكر والتنوير ونقد الأصولية لأكثر من سبب يختلط فيها العلمي بالشخصي. بالإضافة إلى ثقافته الواسعة وعلميته الواضحة وتجربته الطويلة، هو أيضاً مهجوس بشكل شخصي بأزمة الفكر الإسلامي وبغضه للتعصب والاستبداد الديني على كافة أشكاله، وعلى مدار عمله الطويل يمكن أن نشعر بروحه المتألمة من الوضع الذي وصلنا إليه. وقد أعلن أكثر من مرة أنه يقوم بالتأليف لنفسه.

يعترف هشام بأنه اختار أركون ليترجم له لأن أركون يجمع بين العلمية الكبيرة والتوتر والألم الشخصي الذي لا يخل بحياديته. وهذا ما يحرك أيضاً «هشام» في نشاطه الفكري فهو علمي وعميق وبذات الوقت ملتهب عاطفياً ومهيج فكرياً، ولا يمل في غالبية مواضيعه التي يكتبها عن إطلاق نداءات مستمرة إلى جميع الجهات الثقافية والسياسية والدينية والأكاديمية إلى تبني الفكر العقلاني وطرد الظلامية والتعصب.

يُعَدُّ هاشم صالح الآن من أكثر الشخصيات المؤثرة على ساحة الثقافة والأفكار في العالم العربي، وهو يفعل ذلك بأكثر طريقة ناجحة. لقد قام بترجمة الكتب الهامة جداً الفيلسوف الكبير محمد أركون التي تقوم بتطبيق المناهج العلمية الحديثة على التراث الإسلامي، وتكشف بوضوح وبطريقة عن الأسباب العميقة للانحطاط الذي يعاني منه المسلمون. لا يلعب فقط هاشم مع كتب أركون دور المترجم فقط ولكن أيضاً الشارح والمعلق والمحاور حيث تتضمن كثير من كتب أركون حوارات جريئة وعميقة يجريها هاشم معه.

في الأعوام الأخيرة بات نشاط هاشم أكثر وضوحاً وتأثيراً مع طرحه عددا من الكتب الرائعة التي أصبحت الآن من أكثر الكتب الفكرية رواجاً. ففي معرض الرياض الدولي الأخير للكتاب حصل كتابه "معضلة الأصولية الإسلامية" على مستويات متقدمة في قائمة المبيعات. ولكن قبل أن نتحدث عن هذا الكتاب في مرات مقبلة سنتناول كتابه البارع "مدخل إلى التنوير الأوروبي" الذي يعد من أكثر الكتب المهمة التي دخلت إلى المكتبة العربية خلال الأعوام الماضية.

في هذا الكتاب المميز الذي صدر عن دار الطليعة يتناول هاشم الملحمة التاريخية للتنوير الأوروبي بطريقته الساحرة والممتعة التي لا تشعر بالملل معها أبداً. فعلى الرغم من القيمة الكبيرة للكتاب على مستوى البحث والتنازل إلا أن هاشم كتبه بطريقة فاتنة ومشوقة جعلت قراءته مسألة ممتعة بحد ذاتها.

هاشم صالح لديه القدرة الكبيرة على شحن العواطف بالأفكار، لذا فإنه من البداية عندما يتحدث عن القرون الوسطى المتشائمة والبائسة فإنك تشعر بأنك انتقلت بروحك إلى أعماق تلك القرون المظلمة التعيسة. وهو لا يكتفي فقط بسرد الوقائع التي تجعل تلك المرحلة الغاطسة بالغيبيات والتي تهيمن فيها العقلية الرمزية والمهووسة بالتعذيب الأخلاقي ولكنه يختار أيضاً العبارات الشهيرة المعبرة عن تلك المرحلة مثل هذه العبارة التي قالها الشاعر الفرنسي لوكونت دوليل: "آه، يا تلك العصور البشعة للكهنوت المسيحي وانتشار البرص والأوبئة والمجاعات».

يحمل الكتاب وصفاً عميقاً على مستوى فكري وروحي للقرون الوسطى ولكن مع ذلك فإن هاشم لا يفقد علميته عندما يتحدث عن مراحل مختلفة في تلك القرون. فهناك القرون الحالكة الظلام التي تمتد من الخامس الميلادي إلى القرن العاشر ولكن بدأ بعد ذلك الفكر العقلاني حتى تصاعدت في القرن الرابع عشر والخامس عشر التي خفت فيه قليلاً قتامة الظلامية الفكرية وصولاً بعد ذلك إلى عصر النهضة الذي بدأ في القرن السادس عشر.

ترافق مع دخول العقلانية تطور في المدن والتجارة ثم بعد ذلك تأسست لأول مرة الجامعات مثل السوربون في القرن ال ١٣ واكسفورد وكذلك مراكز لترجمة العلوم من الإغريق والعرب.

مع دخول أنوار العقلانية ابتدأ الصراع الكبير والتاريخي بين العقل والإيمان. ويستشهد هاشم بمقولة لمؤسس علم الاجتماع العالم العظيم دوركهايم الذي يصف تلك المرحلة الصراعية بأنها: "كانت شديدة البلبلة والاضطراب. وكانت متمزقة تتراوح بين احترام الذات وبين جاذبية الفكر الحر».

يتطرق بعد ذلك هاشم إلى مرحلة مهمة وهي مرحلة القديس توما الألكويني الذي استطاع أن يؤلف تركيبة فكرية استطاعت أن تجد حلاً معقولاً لهذا الصراع القوي بين العلم والدين، من خلال رؤيته القائلة بوجود مجالين متمايزين للمعرفة. مجال خاص بالفلسفة ومجال خاص بعلم اللاهوت. وكما يقول هاشم فإن هذه فلسفة توما الألكويني التي فرقت بين حقائق العقل والإيمان تعتبر من أشهر الفلسفات في ذلك الوقت لحل ذلك الصدام الكبير والتي لا زالت مستمرة لحد الآن في أوروبا.

بعد ذلك جاء عصر النهضة الذي انبثق مع ثلاثة أحداث هزت أوروبا وهي انتشار التجارة عن طريق الرحلات البحرية والبرية وبداية الإصلاح الديني وانتشار النزعة الإنسانية. هذه النزعة الإنسانية التي جعلت الإنسان محور الكون كان لها دور كبير في التقدم والازدهار الذي حدث بعد ذلك. هذه النزعة الإنسانية تختلف عن العصور الوسطى التي كانت تزهد في الإنسان ولكن التغيرات على مستوى الفكر والواقع دفعها للحضور بشكل أكبر. فقد أحس الإنسان بمتعة الرفاهية مع الازدهار المادي وأسهم ذلك في تعزيز الجانب الباحث عن السعادة بداخله. هدف النزعة الإنسانية هو تحقيق المثل الأعلى للكمال البشري في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والجمالية والفنية والأخلاقية. وتزعم هذه الحركة الإنسانية الفيلسوف الهولندي إيراسموس الذي عبَّر عن سعادته بهذه النزعة التي تهدف إلى إسعاد الإنسان وازدهاره بهذه العبارة الرائعة: "يالله!. ما هذا القرن العظيم الذي ينفتح أمامنا. كم أتمنى لو أني أعود إلى الشباب».

ويتعرض بعد ذلك هاشم صالح للمرحلة العظيمة للتنوير الذي بدأ بالظهور في أكثر من مكان في أوروبا. ويتتبع هشام رحلات عدد كبير من المفكرين التنويريين الذين بذلوا جهوداً هائلة وكبيرة وضحوا بسلامتهم وأرواحهم من أجل الدفاع عن العقل في مواجهة الأصولية والتطرف. يتضمن الكتاب صفحات مضيئة عن مفكرين عظماء أمثال سبينوزا وفولتير وديكارت وغيرهم. ولكن أيضاً يتطرق إلى القوى الأصولية الصلبة والشخصيات المتطرفة القوية التي كان لديها قدرة فائقة على عرقلة التنوير مراحل طويلة مثل ما فعل جاك بنيني بوسويه الذي يصفه هاشم بأنه «يجسد في شخصيته عبقرية الأصولية». يتضمن هذا الكتاب الرائع مشهد الاضطهاد والتصفيات التي سببها التطرف الديني والأصولية المجنونة التي بإمكانها أن تقتل ٣٠٠٠ شخص مثل ما حدث في مجزرة سانت بارتميلي عندما قتل البروتستانت على يد الكاثوليك.

حديث سريع مثل هذا عن كتاب عظيم أمر في غاية الصعوبة لذا من الأفضل الاطلاع عليه. ولكن المهم الذي يود هاشم أن يوضح لنا طوال صفحات الكتاب هو التركيز علينا نحن الموجودين في قروننا الوسطى الخاصة بنا. إنه يبحر بنا في هذه التجربة التاريخية العظيمة التي أنتجت في النهاية الحضارة الغربية الهائلة من أجل أن نرى نفسنا ونصحح أخطاءنا انه يطلعنا على التجارب التي مرت بأوروبا حتى استطاعت أن توفق بين العقل والإيمان، والأهمية البالغة التي للنزعة الإنسانية التي يفترض أن تجعلنا نهتم بسعادة الإنسان بدل اضطهاده وظلمه بسبب دينه وطائفته، وهو يهدد من خطر الأصوليات التي تنطلق من حكم خرافي على الآخرين المختلفين.

على الرغم من الأسلوب العميق والعملي الذي كتب فيها هشام هذا الكتاب الملائم للانغماس في التنوير الأوروبي إلا أنه ظل طوال الوقت يبعث بصرخات عالية موثقة بالحقائق التاريخية والواقعية التي تؤكد أن الخير والسعادة في العقل والتسامح والتنوير والشر في الأصولية والتطرف والكراهية. على الرغم من إقامة هاشم في باريس إلا أن صرخاته تصل وتؤثر وكأنه بيننا.

عن جريدة الرياض

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

البراكين التراثية لدى هاشم صالح

جمال شحيّد

العرب والبراكين التراثية؛ هل من سبيل إلى إسلام الأنوار؟ عنوان كتاب جديد لهاشم صالح المعروف بأنه المترجم شبه الحصري لأعمال محمد أركون، وبأنه المنادي الكبير لإسلام الأنوار. اللافت في هذا الكتاب، الصادر أخيراً، أن مؤلفه متابع جيّد لتطورات الفكر الأوروبي التنويري، وبخاصة الفرنسي، الذي كسح ظلمات العصر الوسيط وعقابيله حتى اندلاع الثورة الفرنسية عام 1789.

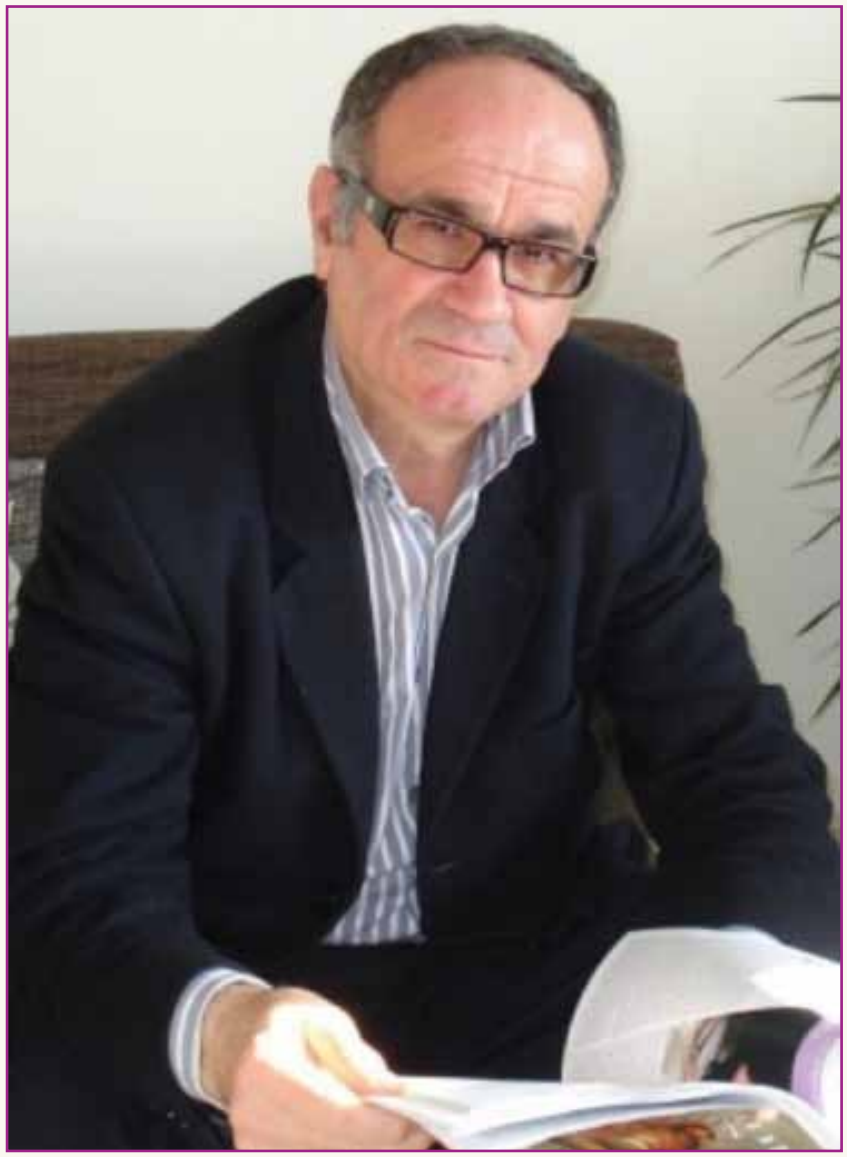

يروي لنا هاشم صالح ولادته الأولى في إحدى قرى جبلة (سورية) وتنكيل أبيه الشيخ بأولاده، وزواجه بعيد وفاة زوجته الأولى من أم "فاجرة ومنحطة وصفيقة". يصور لنا ملامح رجل الدين المنافق والمستبد قائلاً: "ما يفعله الأب البطريرك في العائلة هو بالضبط ما يفعله الدكتاتور المستبد في الشعب. ما هذا الشعب الجاهل القاصر لكي يستشيره الدكتاتور؟". ويضيف أن "الاستبداد الديني، أو اللاهوتي، أخطر أنواع الاستبداد على الإطلاق"؛ ويرى أن "لا معنى للديمقراطية وكل الثرثرات الجارية حولها، ولا جدوى منها ما دامت العقلية اللاهوتية مسيطرة على العرب، ما دمنا لا نتجرأ على نقدها وتفكيكها وإزاحة هالة القداسة عنها فلن نصبح ديمقراطيين ولو بعد ألف سنة».

ويعتبر أن سفره إلى باريس في ١٩٧٦/١٠/٨ كان بمثابة ولادة ثانية له، إذ إنها ولادة على الفكر والحرية، كسرت لديه سلاسل التقليد والجمود والتكلس، فماذا طرأ على حياته؟ "كان ينبغي أن تخرج إلى أوروبا لكي تأخذ كل أبعادك، لكي تجرّب حالك، لكي تقذف بنفسك في مجهول المغامرة الخلاقة". ليس الغرب كله فحش وانحراف وإباحية، هو أيضاً "فتوحات معرفية وأنوار فلسفية قل نظيرها". وهذه الفتوحات يجب أن تؤدي إلى "فكر استباقي" كما قال ميشيل سير؛ والمعروف أن فلاسفة الأنوار في فرنسا إبان القرن الثامن عشر أعدوا الناس للثورة، لا بل تنبأوا بحدوثها.

يتوقف صالح مراراً عند تجاوز الأوروبيين المشكلة الطائفية. وبدأ هذا التجاوز ينمو منذ القرن الخامس عشر وبعده، مع لايبنتز وليسينغ وبايل وفولتير وديدرو والموسوعيين ولوك وسبينوزا... الذين خلّصوا أوروبا من جائحة الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت التي خلّفت آلاف الضحايا: "فلولا التأويل التنويري للدين ورسالته السامية لظلّ الفرنسيون يتخبطون حتى الآن في صراعاتهم المذهبية ولظلوا يذبحون بعضهم بعضاً على الهوية: هذا كاثوليكي وهذا بروتستانتي، ولما حققوا كل هذه الحضارة (التي فتنت هاشم صالح)، فتجاوزوا انقساماتهم وحزازاتهم عن طريق نشر المعرفة وتنوير العقول... فكلما انتشرت أنوار الثقافة في بلد ما تراجعت ظلمات الجهل أكثر فأكثر. وكلما تراجعت ظلمات الجهل أصبح الناس أكثر تسامحاً وتفهماً لبعضهم البعض". هذا هو الدرس الأول الذي لقّنته أوروبا للعالم.

يعترف صالح بأن "هموم فولتير وروسو وديدرو هي همومي. لقد كانوا يعانون من نفس المشاكل التي أعاني منها أنا حالياً، أي الفهم المتزمت والخاطئ والمتعصب للدين. لقد كانوا يعانون من محاكم التفتيش" ومن قمع حرية التفكير. ويتوقف عند كتاب مغمور لروسو عنوانه "رسالة إلى كريستوف دي بومون" رئيس أساقفة باريس الذي ألّب العامة عليه فكفّروه ولاحقوه وأحرقوا كتبه في باريس وجنيف وبيرن وأمستردام؛ وفيه ردّ لروسو يقول فيه إنه "مؤمن مسيحي بالمعنى الإنجيلي الأصلي للكلمة وليس بالمعنى البابوي الفاتيكاني". ويصرّح بأنه تجاوز الدين الشعائري، إذ يرى الدين معاملة أخلاقية وتعاطفاً مع الفقراء والمساكين وأبناء السبيل. ويقول صالح: لو أن عياض بن عاشور أو عبد المجيد الشرفي أو محمد حداد تجرأ وطرح مثل هذه الأفكار عن الدين لشُهِّرَ به ودقّت عنقه، كما حصل لفرج فوده وغيره. ويستطرد صالح في تعداد الوصايا اللاهوتية التي قالها له أبوه قبيل سفره من سورية: "يا ابني، إن كل علوم الأرض لا تساوي قشرة بصلة ما عدا علم التوحيد... يا ابني، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور... يا ابني، الغرب مليء بالانحرافات والمفاسد. لعنه الله. إياك! ثم إياك! خذ العلم فقط واترك ما عداه... قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين... يا ابني، وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب". ويعلق صالح على كل وصية من هذه الوصايا بأسلوب ساخر لاذع، لاسيما وأن مُصْدِرها عرّس على امرأة فاسقة بعد أيام معدودة من وفاة زوجته وأهمل تربية أولاده من ثم، فهو "يمطرنا بوابل من المواعظ الأخلاقية الداعية إلى الزهد في الحياة الدنيا».

إذن هناك حرب شعواء بين تياري التزمت والحداثة. هذا ما حدث في الغرب منذ القرن الخامس عشر وحتى التاسع عشر. وانتصر فيها حزب الفلاسفة على المتزمتين. وتم ذلك على يد مارتن لوثر وفرنسيس بيكون ورينيه ديكارت وإيمانوئيل كانط وهيغل وهايدغر وهابرماس. وينقلنا صالح من عصر النهضة الأوروبية وعصر الحداثة إلى "عصر داعش"، و"ميزة داعش أنها تقول علناً ما يفكر فيه الآخرون سراً: إنها بكل بساطة سوف تقتل كل من لا ينتمي إلى فرقتها الناجية"؛ وهي التي حرّمت الفلسفة والعلوم الطبيعية في الرقة. ولكي ندرك ما يحدث، لا بد من العودة إلى التراث. وهنا يميز صالح بين تراثين: تراث محاكم التفتيش في أوروبا وتراث المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني (١٩٦٥-١٩٦٢). ففي هذا المجمع "تخلت الكنيسة الكاثوليكية عن احتكارها للحقيقة الإلهية المطلقة واعترفت بمشروعية الأديان الأخرى وفي طليعتها الإسلام". وفي النظر إلى التراث العربي يقول "الظلمات تحقد على الأنوار. لقد أطفأوا نور المعتزلة سابقاً ونور الفلاسفة، نور بغداد ونور قرطبة، ولكن... سينتصر المأمون على المتوكل، والمعتزلة على الحنابلة. وسوف ينتصر ابن سينا على الغزالي، وابن عربي على ابن تيمية، وابن رشد على من تبقى... سوف ينتصر الفارابي زعيم العقلانية الإسلامية. وسوف ينتصر المعري ذروة العبقرية العربية". وتحل على صالح روح تنبؤية عاتية يقول فيها إن العالم العربي والإسلامي سوف يدمّر كله بصيغته الحالية لكي يعاد بناؤه لاحقاً بصيغة أخرى قابلة للبقاء. ويتوقف من ثم عند ملامح عصر الأنوار العربي الذي بدأ مع جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورفاعة الطهطاوي وبطرس البستاني وإبراهيم اليازجي والطاهر حداد ويعقوب صرّوف وشبلي الشميّل وقاسم أمين وطه حسين وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران ونجيب محفوظ.

وبما أن هاشم صالح من أكبر الذين ترجموا كتب محمد أركون، فإنه يستشهد به كثيراً، لا سيما وأنه رأى من الضروري "أن يقوم المسلمون بمراجعة تاريخية صارمة لأصول الإسلام وبداياته الأولى"، وأنه لا بد من "تفكيك النص القرآني وكل التراث الإسلامي بالمعنى الفلسفي العميق لكلمة تفكيك وليس بمعنى التهجم والتجريح. بالتفكيك نقصد هنا مجرد تطبيق المنهجية التاريخية النقدية على القرآن كما طبقت على الإنجيل والتوراة من قبل علماء أوروبا". ولتحقيق هذه الغاية، يجدر بالعرب أن يكشفوا النصوص التنويرية في تراثهم ويعيدوا طبعها وتقديمها بلغة عربية حديثة وإدخالها في برامج التعليم، كما ينبغي عليهم أن يترجموا أمهات الكتب التنويرية الأوروبية ويدخلوها أيضاً في برامج التعليم.

ويكرّس الكاتب فصلاً للمفكر الإيراني داريوش شايغان الذي شخّص في كتبه (بالفرنسية) أزمة العالم الغربي وأزمة العالم الإسلامي؛ فرأى أن الغرب توصّل بعد مخاض طويل إلى روح التفحّص والغربلة النقدية اللتين أفرزتا العقلانية العلمية والمؤسسات الديمقراطية. ورأى مثلاً أن هذه المؤسسات أدت إلى حل مشاكل المجتمع عن طريق الحوار العقلاني لا عن طريق الضرب والحرب، وتجاوزت مقولة "إما قاتل أو مقتول"؛ وأفرزت الفلسفة الديمقراطية مبدأ التناوب السلمي على السلطة لا الاستئثار المؤبد بها. ورأى شايغان أن الحضارة الغربية استطاعت تجاوز الأصولية الدينية والاعتراف بمناقب كل شعب. فهذا غوته الذي تصدّى لهيمنة الثقافة الفرنسية على أوروبا يعود في أواخر حياته لينبذ التعصب القومي الشوفيني ضد الفرنسيين قائلاً: "كيف يمكن لشخص مثلي همه الوحيد هو التفريق بين الحضارة والبربرية أن أكره أمة تنتمي إلى أكثر الشعوب عظمة ورقياً على وجه الأرض؟ كيف يمكن أن أكره أمة أدين لها بجزء كبير من تكويني الفكري والثقافي؟" (ورد في إحدى محاوراته مع بيتر ايكرمان بتاريخ ١٤ آذار/مارس ١٨٣٠؛ راجع هاشم صالح ص ١٧٤).

وفي مسألة التسامح الديني، يعيدنا المؤلّف إلى كتب بيير بايل (١٧٠٦-١٦٤٧)، لا سيما "مرافعة من أجل الدفاع عن حقوق الضمير التائه" وبخاصة "القاموس التاريخي والنقدي"؛ كما يعيدنا إلى جون لوك (١٧٠٤-١٦٣٢)، وكتابيه "رسالة في التسامح" و"مقالة عن السلطة المدنية"، وكانت رداً على مجزرة سان بارتيليمي التي راح ضحيتها أكثر من ثلاثة آلاف بروتستانتي في باريس وحدها. وسابقاً سقط في حرب الثلاثين عاماً (١٦٤٨-١٦١٨) ثلث سكان ألمانيا، وهي أيضاً حرب طائفية بين البروتستانت والكاثوليك. كانت المقولة اللاهوتية السائدة منذ قرون تقول: "خارج أحكام الكنيسة لا وجود لخلاص"، وهي قريبة من مقولة "الفرقة الناجية" في الإسلام. ويرى صالح أن الكنيسة بعد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني استعادت رونقها. وورد في البيان الختامي للمجمع "إننا نحترم الإسلام والمسلمين ونقدّر إيمانهم بالله واليوم الآخر ونريد أن نطوي الصفحة السوداء معهم نهائياً". واعتذر البابا يوحنا بولس الثاني عام ١٩٩٢ عن محاكمة غاليليو، واعتذر عام ١٩٩٧ عن مجزرة سان بارتيليمي، وفي هذه الأجواء الانفتاحية تلاشت حدة الطائفية في أوروبا.

عن العربي الجديد